Route Educational and Social Science Journal ISSN: 2148-5518
Volume 5(3), February 2018

غربة الأنا وصدمة المكان في رواية "مترو حلب" للروائية مها حسن

د.ميس أبو زيادة*

الملخص:

تهدف الدراسة إلى النظر في قضية اللجوء من خلال التركيز على بنية المكان ومالها من دلالات نفسية على الشخصيات الروائية التي عانت ألم الغربة في المنفى، وتعتمد الدراسة المنهج الاستقرائي المبني على الاستنباط من خلال ملاحظة علاقات تقابل المعطيات المكانية والزمانية وأبعادها النفسية وتصاعدها وتكرارها، وعلاقاتها الداخلية من ناحية، وصلتها بطبيعة تكون الشخصيات والمواقف التي تمر بها من ناحية أخرى.

وبينت الدراسة أن النص قد تحول إلى فضاء عكس نتائج اللجوء من خلال معايشة اللاجئ للمنفى وما يعانيه من تناقض بين الماضي والحاضر، وبين ما كان وما هو آت، وبين الحلم والحقيقة التي يعيشها السوري في المنفى، لقد استطاعت الرواية موازنة الفكري مع الفني دون الوقوع في الشعارات، واستطاعت أن تخرج الفني إلى عالم الواقع؛ لتجعل الفن وسيلة من وسائل الإضاءة والتنوير، وبذلك حققت الرواية هدفين أساسيين: العالم الافتراضي المتخيل الذي يسيطر على خيال القارئ، والعالم الواقعي الذي يعكس حقيقة المأساة التي يعيشها اللاجئ السوري في مناطق اللجوء.

الكلمات المفتاحية: الرواية، اللجوء، البعد النفسي، المنفى، مترو حلب، غربة الأنا، صدمة المكان.

---

*– **الدكتورة ميس أبو زيادة:** أستاذ مساعد في جامعة الاستقلال بفلسطين، درست البكالوريس والماجستير في جامعة النجاح الوطنية، وحصلت على شهادة الدكتوراة من جامعة عين شمس تخصص دقيق "نقد وبلاغة"، لديها العديد من الأبحاث العلمية منها: المنهج الأسلوبي في تحليل الخطاب الإبداعي، وظواهر من العدول الأسلوبي في شعر الخنساء – التشبيه أنموذجاً، وجماليات التضاد في شعر الخنساء، ولديها كتاب منشور بعنوان: تأصيل الأسلوبية في الموروث النقدي والبلاغي (كتاب مفتاح العلوم للسكاكي نموذجاً).

Route Educational and Social Science Journal ISSN: 2148-5518
Volume 5(3), February 2018

The alienation of the ego and the shock of the place in the novel "Aleppo Metro" Written by novelist Maha Hassan

Dr. Mays Abu Ziadeh
Al–Istiqlal University – Palestine

Abstract:

This study aims to examine asylum issue and its psychological connotations of the novelist characters who suffered the pain of exile, by focusing on the structure of the place. The study depends on the inductive approach. This approach rely on the deduction, by observing corresponding relationships of the spatial and temporal data and their psychological dimensions. In order to observe when they escalate and when they will be repeated. And to observe their Interior relationships from one hand, and their relevance to the nature of the characters and how they face those attitudes on the other hand.

The study revealed that the text converted to space unlike asylum results and what the contradiction that the Syrian refugee faced in the exile. This contradiction ranges from: (the past & present, what was happened & what will happen, the dream & the reality). The novel was able to balance the intellectual with the artistic without falling into mottos. The novel was able to bring artistic side to the world of reality; in order to make art a means of lighting and enlightenment. The novel achieved two main goals: the imagined virtual world that controls the imagination of the reader, and the real world that reflects the reality of the tragedy experienced by the Syrian refugee in the areas of asylum.

Keywords: novel, asylum, psychological dimension, exile, Aleppo metro, the alienation of the ego, the shock of the place.

المقدمة:

يشكل اللجوء قضية إنسانية تعكس عمق المأساة السورية الناتجة عن ترك الوطن بسبب الحرب، وما نجم عنها من أزمة الانتماء والاضطراب النفسي حول المنفى المفاجئ للسوريين الذين عاشوا ثنائية الحرب في الوطن، وغربة المكان في المنفى.

وفي هذا الصدد تضافرت جهود الكتاب في رصد هذه الظاهرة الإنسانية المتمثلة في ضياع الإنسان السوري في الشتات، وما تبعه من آثار نفسية خلفتها الحرب التي تركت دمغات متشابهة على النتاج الروائي السوري بشكل عام، وروايات مها حسن بشكل خاص والتي تمثلت في رواية "مترو حلب"، حيث تعد هذه الرواية نموذجاً لملايين المهاجرين السوريين الذين تحولوا إلى غرباء بدون وطن، وبدون جذور، فهي تعكس الأوضاع السورية وتحديداً مدينة حلب التي عاشت فيها الكاتبة قبل رحيلها، مما يعكس خطوطاً مشتركة بين حياة البطلة والكاتبة التي انتصرت للحياة في مواجهة الحرب والموت والخيانات.

تقدم الدراسة تحليلاً للعلاقة بين المنفى والعودة للوطن في ظل وجود بطلة تعاني إحساس الاغتراب بسبب الحرب، حيث تتخذ الروائية من كلمة (مترو) فضاء ثالثاً بين المنفى والوطن، عاكسةً رحلة من الجمال والألم والترحال والانتقال.

تعدّ الحرب وذعر المنافي والاغتراب وألفة الأماكن وعبثية الحياة محاور متعددة تتقاطع عندها رواية "مترو حلب"، لذلك تحاول الدراسة معتمدةً البعد النفسي الكشف عن ظلال هذه المحاور من خلال تحليل المتون السردية التي سارت في محورين، الأول النوسطلجي العاطفي المستقى من الماضي والذاكرة، والثاني الذهني الواقعي المستمد من الحاضر في حبكة روائية تقوم على الأحلام والكوابيس واليوميات والرسائل التي تعكس تفاصيل الحياة السورية الراهنة، وهنا تتداخل الأمكنة والأزمنة في خلق رؤية مستقبلية إزاء قضية إنسانية تمثل اللجوء.

لقد عبرت الرواية عن التحديات والأزمات التي يعيشها اللاجئ السوري، فكانت صورة صادقة تعكس عمق المعاناة لا سيما أن " الرواية هي الطريقة التي يخاطب بها المجتمع نفسه... وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الارتباط الوثيق بين كتابة الرواية والظروف التي يعيش المجتمع في ظلها." [1]، لقد عبرت الكاتبة عن هذه التحديات والصراعات بأساليب سردية وتقنيات متنوعة، لم تعكس من خلالها رؤية

([1]) الرواية العربية، روجر ألن، ترجمة: حصة إبراهيم، الشمروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1997، ص58.

فردية وإنما رؤية جماعية لشريحة من اللاجئين دون أن نلمح تحيزاً عنصرياً، أو انتماء حزبياً، فكانت الكاتبة صاحبة قضية قدمتها برؤية ايديولوجية تلاءمت مع الأحداث السياسية معبرة عن قضية مصيرية من خلال استخدام الجانب الفني المعتمد على آليات تقنية بحيث " تبدع هذه الآليات زمن عالم الرواية، ولغات الشخصيات المتمايزة، وخصوصيات أمكنة تواجدهم وعلائق عيشهم ورموز معاناتهم الكبرى". [2] مماحافظ على شكل الرواية وهيكلتها.

على عتبة العنوان:

يعد العنوان تذكرة سفر إلى الرواية، وهو المؤثر الأول في استقبال النص وفتح المجال للتأويل، فهو إشارة سيميائية تبعث رسائل متعددة، ويعدّ أول العتبات التي تقع عليه أعين القراء من خلال علاقة الدال والمدلول.

ويشير عنوان الرواية إلى علاقة الإنسان بالمكان، كاشفاً اللثام عن منفى مفاجئ للسوريين، واصفاً حالة الذعر التي وصلت إليها الأنا بسبب اللجوء والبعد عن الوطن، لقد تجاوزت دالة المكان (حلب) ووسيلة التنقل (المترو) المعنى المباشر لتشكل رمزية فنية لمصير شعب يعاني من ويلات اللجوء، وينطبق على توظيف الكاتبة للأغراض المكانية هنا قول بوتور " إن لكل غرض وظيفته المباشرة الواضحة، ولكننا حين ننظر إليه من الناحية الفنية، فإن هذا الغرض يتعدى وظيفته الأولى ويكتسب وظيفة أخرى غير التي صنع من أجلها." [3]

وبذلك تخرج دالة المترو عن الغرض الحقيقي لتشكل جسراً طويلاً بين مدينتي حلب وباريس من خلال رصد تفاصيل المأساة السورية في جانبها الإنساني المتعلق باللجوء والفقد بسبب الحرب، حيث شكل المترو ثنائية المنفى والوطن، الماضي والحاضر، الهوية القديمة والهوية الجديدة بين الشرق والغرب، مقلباً الذاكرة عبر صور قديمة مرتبطة بالمكان المتحرك والمتغير بين باريس وحلب، في محطات المترو التي تسير في خطوط ذهنية ونفسية مغلفة بالحنين رافضة التأقلم مع الوضع الجديد في المنفى، ساخطة على الحرب التي قضت على أحلام العودة، لقد مرّ مترو باريس في خيال البطلة وأحلامها عابراً لأحياء حلب

([2]) بنية الحكاية (في النص الروائي المغاربي الجديد)، عبد القادر بن سالم، دار الأمان، ط1، 2015، ص25.

([3]) بحوث في الرواية الجديدة، ميشال بوتور، ت فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، ط3، بيروت، 1986، ص53.

وضواحيها،" كلما مرّ المترو فوق السين أو المدينة، تخيّلت أنني سأنظر من النافذة، لأرى قلعة حلب أو سوق الهال أو حي التل ..." [4]

صورة اللاجئ السوري في الرواية:

لقد شكلت رواية مترو حلب مفارقة من خلال رصد شخصيات غير متوقعة خرجت عن خط المألوف، شخصيات هاجرت بإرادتها لأسباب متنوعة منها: البحث عن الشهرة، الزيارات العائلية، تأمين المستقبل، ...، وأثناء الهجرة تباينت مواقفها من المنفى وتغيرت أهدافها " إن حياة الشخصيات الداخلية تصبح تحت مجهر مكبر أثناء الرحيل." [5] فتتكشف مكنوناتها، لم تكن هذه الشخصيات تقليدية في رصد المعاناة السورية، إذ لم تهاجر إلى المنفى هجرة قسرية بل اختيارية على خلاف معظم اللاجئين الذين يعيشون في بلدان ضعيفة اقتصادياً، أو اللاجئين الذين يعيشون التهميش أو عدم الاعتراف على الحدود، ويعانون من إغلاق المعابر، تتحدث الرواية عن شخصيات عاشت ظروفاً اقتصادية وسياسية جيدة، ووجدت – في بعض الأحيان – قبولاً في استيعابهم ودمجهم في المجتمع، وبعد فترة لم تتمكن الشخصيات من العودة إلى الوطن بسبب تصاعد وتيرة الحرب، وبقيت في المنفى تعيش ألم الغربة وحلم العودة.

رصدت الرواية شرائح متعددة لشخصيات متنوعة عاشت في المنفى الأوروبي وأصبحت خليطاً متعدد الأفكار والمذاهب، ولكنها تفاوتت في نسبة الاندماج مع هذا المنفى، فكل لاجئ فيها حمل في جعبته تجارب وحكايات تريد أن تخرج للعلن، ويمكن رصد صورة اللاجئ السوري من خلال استنطاق بعض الشخصيات المنفية في مكان النفي على النحو الآتي:

أولاً: صورة اللاجئ الذي يرفض المنفى ويعيش حلم العودة:

مثلت هذه الشريحة من اللاجئين الشخصية البطلة في هذه الرواية (سارة)، التي هاجرت حلب في مصادفة قدرية إلى باريس، فهي لم تكن هاربة من الحرب بل تركت الوطن بتأثير حروب عائلية خفية توجب عليها دفع ضريبتها، وبعد اندلاع شرارة الحرب بات من المستحيل العودة إلى الوطن، فاستقبلها المنفى (باريس) كما مئات الآلاف غيرها، ومنحها أوراقاً نظامية، وجعلها تعيش حياة حرة، ومع ذلك

([4]) مترو حلب، مها حسن، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، القاهرة،، 2016، ص45.

([5]) The Short Story, Valerie Show, London: Longman,1983, P:135.

ظلت البطلة تعاني من مشكلة التأقلم فالكرامة منقوصة، والهوية مفقودة، ومن هنا بدأت رحلة الصراع بين البقاء في المنفى، أو الرجوع إلى الوطن.

وبين فترة وأخرى تواسي البطلة نفسها بأنها اختارت حياة المنفى لأنه لا يوجد أمان ولا مستقبل في سوريا بل دمار وقتل، ولكن هذا الأمان الوهمي كان يشعرها بالغربة في بلاد باردة لا تشبه ضجيج الوطن ولا حيويته، فالمنفى فرض عليها صراعات نفسية وتعقدات اجتماعية فانصهرت ذاتها في بوتقة العدم والانهيار حيث الوحدة والغربة.

ورغم أنها شعرت في الوطن بغربة الإبداع وحرمت من الغناء بسبب التقاليد الصارمة إلا أن الفطرة النقية اتجاه الوطن جعلتها تعيش حالة هذيان للوطن وأيام الطفولة، فهي لم تنسلخ عن الوطن رغم عذاباته، ولم تنصهر بالمنفى رغم ملذاته.

طيف الوطن/ صورة الوطن المفقود:

رغم ملذات المنفى ألا أن لعنة المكان حلت باللاجئ الذي لم يستطع أن ينسى وطنه، عاشت سارة تحلم بعالمها الأسري الدافئ من خلال سلسلة من الأحلام والكوابيس تنقلت من خلالها بين باريس وحلب، لتعيش صراعات نفسية داخلية كرفض واعٍ للمكان البديل، فحلب الحاضر الغائب في ذهن البطلة بكل ما تعنيه المدينة من قيمة نفسية وتاريخية وجغرافية.

تحضر "حلب" بقوة عبر مذكرات الشخصيات ورسائلهم ولا سيما بطلة الرواية " سارة "، وفي هذا الحضور رسالة لكل من تمنى أن يترك الوطن ليعيش حياة الرفاهية والأمان أن النفس تتوق للوطن لأسباب غير معروفة فهناك روابط غير مرئية تحبك العلاقة الفطرية، روابط تغلبت على المشاعر البشرية، فاللقاء القصير بالخالة أمينة، والتي اكتشفت أنها والدتها فيما بعد جعلها تستعيد ترتيب العلاقات، لتكتشف أن كل العلاقات البشرية مزيفة فخالتها (أمينة) هي أمها، وأمها (هدهد) هي خالتها، وغيرها من الأمور المتشابكة، فكل ما حولها هامشي سوى عودتها إلى حلب.

سارة لا تعلم شيئاً عن المنفى لا تستطيع رسم ملامحه بدقة، لا تستطيع تحديده إلا عندما تقيس تفاصيله وتقارنه بحلب، فحلب هي المعيار الدقيق للتعامل مع تفاصيل الحياة في المنفى فهي المسيطرة

عليها، " فأنا أعرّف المكان الجديد بالاستناد إلى صورة المكان الذي أعرفه من قبل. كأنني أطبق صورتيَ المكانَيْن، ثم أجري المقارنات الخفيفة، لأستوعب الجديد." [6]

باريس صورة انعكاس لحلب فكل شيء في باريس هو في حلب، أصبح الشانزليزيه سوقاً من أسواق حلب، المقاهي الباريسية تطل على حلب، "باريس تنزلق محل حلب في كلامي، وحلب أيضاً تأخذ مكان باريس...أنا في باريس. أكرر هذا كل صباح لنفسي، كي أنتبه إلى مكاني"[7]، فالمترو مهما انطلق وتحرك في محطات باريس فإن محطته الأخيرة والمحسومة هي حلب" الإقامة والاستقرار في المكان ترف لا نمتلكه نحن أبناء الحرب. نسعى من محطة إلى محطة من هذه المنافي حاملين معنا محطتنا الأساسية." [8].

إن صدمة المكان وذعر المنافي جعل سارة تعيش الذاكرة هروباً من يأس الحاضر، فهي ترفض إقامة علاقة مع المكان الجديد لأنها تجهز نفسها للعودة إلى الوطن "كنت لا أريد أن أشعر بأن هذا مكاني لا أريد روابط مع المكان...هذا يتطلب أن أتابع عدة دورات تدريبية أي أن أهيئ نفسي للعيش طويلاً هنا... وهذا ما لا أريده"[9] بذلك تكون حلب هي الذاكرة التي لا تُنسى، فرغم محسوسيتها وأبعادها المختلفة ليست المكان المسافة أو المساحة أو مجرد فضاء تتكدس فيه الأشياء والبشر، وإنما هي المكان الدلالة، القيمة، والرمز، إن إدراك البطلة للمكان والتعايش معه والصراع الذي ينشأ منه وسيلة لإثبات الوجود، وتجذير الهوية، وعنوان البقاء، فحلب عنصر رئيس لتمثل الأحداث، إذ يمكن النظر إليها بوصفها " شبكة من العلاقات والرؤيات ووجهات النظر التي تتضامن مع بعضها لتشييد الفضاء الروائي الذي ستجري فيه الأحداث." [10].

ثانياً: صورة اللاجئ المنتمي إلى الوطن البديل:

لقد مثلت هذا الاتجاه (أمينة) الأم البيولوجية لسارة لكنها تخلت عنها وهي طفلة لم تتم عامها الأول ورحلت إلى باريس تبحث عن الشهرة، ادعت بأنها خالتها وضحت بكل شيء من أجل شهرتها وتوجهت صوب المنفى الاختياري.

([6]) مترو حلب، ص127.
([7]) المرجع السابق، ص9.
([8]) المرجع السابق، ص254.
([9]) المرجع السابق، ص63.
([10]) بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، ط1،، بيروت، 1990، ص32.

أزال المنفى عند أمينة كل الحواجز المخيفة وفتح المجال لها للإبداع دون خوف أو قلق، عاشت أمينة شعور الانتماء إلى الوطن البديل، وما عادت تنتمي إلى سورية بل أصبحت كمن غير جلده ليصبح شخصاً آخر، " أنا فرنسية لأنني أحقق شخصيتي...أنا هنا، لأنني أحسّ بحريتي، أفشل حين أريد، وأنجح حين أريد." [11]

أمينة لا تؤمن بالصداقة ولا الحب ولا العائلة ولا الوطن، اختارت فرنسا وطناً بديلاً وقطعت كل الأسباب التي تصلها بسوريا، إيمانها الوحيد محصور بالفن والعالمية المتجسدة في المسرح والجمال، " أنا لا أؤمن بالصداقة، كما لا أؤمن بالحب، كما لا أؤمن بالعائلة، كما لا أؤمن بالوطن...أنا لا أؤمن إلا بالفن. وبناء على إيماني هذا بالفن، أنا فرنسية. لأن هذه البلاد حققت لي أحلامي وطموحاتي كممثلة."[12]

ثالثاً: اللاجئ السوري والثورة:

عبرت الكاتبة عن مختلف وجهات نظر السوريين بعد مرور أكثر من خمس سنوات على انطلاق الثورة السورية، لقد أدانت الكاتبة النظام ولم تبرئ الثورة بسبب التغيرات التي طرأت عليها، وعبرت عن ذلك من خلال استخدام أسلوب النقد اللاذع في الجانب الموجه للشخصيات المتذبذبة التي تتعامل مع الروح الثوري بمنطق الحسابات والربح والخسارة. فقد كان يفترض من الثورة أن تزيح ظلماً واستبداداً لكنها تحولت إلى نزاعات وتناحرات وشعارات وهمية.

أصبحت فكرة الثورة في المنفى في حالة تشرذم مزمنة في ظل وطأة الصراعات وغياب المرجعية التي حرمت الشعب السوري من صموده في المنفى، لذلك رفضت البطلة التواصل مع معارضين استفادوا من الثورة، وهتفوا بها من بعيد، بينما الثوار الحقيقيون ماتوا في الوطن، " أشعر بالاختناق حين أرى أحد هؤلاء الذين يصرخون بوجه العالم ويوبّخونه، هذه النخب المتعالية، هؤلاء المنافقون، المتصنعون، البعيدون عن براءة طارق وكل الذين يعيشون الألم والموت..." [13]، تتعجب سارة من هتافات النصر التي يرددها المتظاهرون، فهي لا ترى في الثورة نصراً ، " لم أفهم انتصارهم ذاك. على ماذا انتصروا وعلى من؟ نصف

([11]) مترو حلب، ص25.
([12]) المرجع السابق، ص24.
([13]) المرجع السابق، ص60.

الشعب السوري صار نازحاً وربعه مات تحت نيران النظام، كما تحت نيران المعارضة. أين الانتصار وسط ذلك الخراب؟"[14]

قررت سارة أن تتخذ عزلة اختيارية؛ لأنها لم تجد قدرة نفسية في التواصل معهم، فهم يهتفون باسم الثورة ولا يعيشون أحداثها، " يعيشون في باريس ويريدون صنع ثورة!!" [15]، لقد كانت سارة شاهداً حياً على مرحلة قاتمة من عمر الثورة التي آمنت بها ثم خاب ظنها بها، حالها حال آلاف اللاجئين السوريين الذين فقدوا الثقة بالثورة والثوريين.

رابعاً– صورة اللاجئ الباحث عن مستقبل عائلته:

عرضت الرواية صورة اللاجئ السوري الذي يعاني الشقاء متنقلاً من مكان إلى آخر في الدول الغربية باحثاً عن مستقبل أطفاله، ولقمة عيشه، مما يجعله يعيش حياة المنفى بين ثنائية القبول والرفض، فهو في نظر الآخر هارب من وطنه جاء ليشاركه لقمة العيش وفرصة العمل، يعيش تحت رحمة القبول من الآخر والالتزام بقوانينه وأنظمته من أجل مستقبل أطفاله الذين حرموا الأمن والأمان والتعليم، " لكن أوروبا هي الوجهة المفضلة من أجل أولادي... مع تمنياتي الدائمة ألا تكون وجهة نهائية. أولاد سوريا قتلت الحرب مدارسهم وصفوفهم ومناهجهم، ويجب ألا تقتل مستقبل الذين فروا ونجوا من الحرب." [16]

إنها صورة اللاجئ الذي يعزي نفسه باختيار حياة آمنة؛ لأنه لا يوجد أمان ولا مستقبل في سورية بل دمار وقتل، ومع ذلك يشعر بقلة الأمن في المنفى وبالوحشة والتوجس من الحاضر والمستقبل، مما قد سيؤثر سلباً على هوية وانتماء الأبناء خصوصاً مع انشغال الوالدين في الكسب المادي الأمر الذي سينعكس على هوية الأبناء وعاداتهم وتقاليدهم في المنفى، وستختفي لديهم كل المدخلات الصحيحة للانتماء والمواطنة التي تدفع المرء للتضحية عن الوطن مما يجعل قضية الوطن في غياهب النسيان.

خامساً– صورة اللاجئ الضحية:

في خضم الحروب والاقتتالات الدموية يتركز اهتمام الناس على النجاة بأرواحهم لمنطقة آمنة بعيداً عن ساحات الحرب، فيلجؤون إلى وسائل متعددة للهروب من الوطن فيقعون ضحية لتجار اللجوء الذين يستغلون تفاقم الأوضاع الأمنية والسياسية فيتاجرون بالهاربين عن طريق الحصول على وثائق سفر

([14]) المرجع السابق، ص52.
([15]) المرجع السابق، ص52.
([16]) مترو حلب، ص76.

زائفة ومزورة "تابع الآخرون طريقهم إلى أوروبا عبر جوازات سفر مزورة يدفعون ثمنها مبالغ كبيرة لمافيات برعت في تزوير الوثائق وإرسال السوريين إلى أوروبا." [17]هكذا هرب اللاجئ السوري من الحرب الدائرة على الأرض السورية على أمل أن يحظى بشيء من الأمن والاستقرار لهم ولعائلاتهم، لكنهم في الحقيقة وقعوا ضحية تجار القضية نتيجة الظروف الأمنية غير المستقرة والأوضاع الاقتصادية المتردية.

اللاجئة السورية بين إثبات الذات وتحدي الواقع:

تعدّ المرأة اللاجئة هي جزء من قضية اللاجئين ومعاناتهم، لقد دفعتها الظروف إلى البحث عن عمل في مجالات الحياة المختلفة لإثبات ذات ذاتها وتوفير حياة كريمة تؤمن من خلالها حياتها، لقد كانت المرأة حاضرة في الرواية حضوراً لافتاً، بل طغى حضورها على الرجل الذي لم يتعد دوره في الرواية دور المساند لإظهار شخصية المرأة، فكانت الرواية في مجملها العام رصد لحال اللاجئين وعلى الأخص اللاجئة السورية، لقد لعبت المرأة في الرواية دوراً هاماً في رصد معاناة اللجوء من خلال الشخصيات النسوية التي ظهرت في الرواية فهي المفعلة للأحداث، المحركة للمواقف والتفاصيل.

فسارة مثلت اللاجئة الملتزمة بتقاليد التنشئة الاجتماعية المبنية على ضرورة الالتزام، لقد امتلكت سارة صوتاً جميلاً حرمت من إظهاره في حلب بسبب منعها من الغناء، وعندما انتقلت إلى باريس بلد الفن والحرية احتفت بالمبادئ رغم حبها الشديد للغناء، فقد كبحت جماح صوتها المؤهل للغناء، عكس خالتها أمينة التي هجرت كل شيء من أجل الفن.

لقد تحملت سارة تناقضات الحياة حيث واجهت الصدمات لوحدها حتى تستعيد ذاتها المسلوبة المتشبثة بحلب، لقد دخلت سارة ميدان العمل لتؤمن لقمة العيش فعملت مربية لطلفة ومعلمة للغة العربية.

إن اختيار البطلة لتدريس اللغة العربية في المنفى كونها لغة الذات والهوية، إذ لها هيبة خاصة وسلطة خاصة على القلوب والذاكرة، ويبقى التمسك بها تحدياً للمنفى، إن استخدام اللغة العربية وتدريسها في المنفى هو امتداد لثنائية الذات والآخر " دروس اللغة العربية هي جسري صوب الآخر في فرنسا، جسري المهزوز." [18]

([17]) المرجع السابق، ص75.

([18]) مترو حلب، ص32.

لقد كانت سارة مثالاً حياً لأنموذج المرأة اللاجئة الملتزمة بالعادات، المثابرة، المكافحة، العاملة، وقد حاولت جاهدة أن تعطي صورة إيجابية للعرب عكس الصورة الإرهابية التي طبعت في أذهان الغرب.

أما أمينة فهي مثال اللاجئة المتمردة شخصية نسوية خرجت عن طور التقليدية في بناء الشخصية النسوية في الرواية العربية، لقد استطاعت أن تستغني عن وطنها وابنتها دون الشعور بالندم وهذا ما لم نألفه سابقاً لا سيما أن غريزة الأمومة علاقة تميز المرأة وتجعل لها قدسية خاصة، لقد اختارت أمينة المنفى وسيلة للشهرة واستبدالا للوطن، فقد وجدت في المنفى مساحة حرة، وتشجيعاً من الآخرين، وكان هذا الدافع الأكبر على الإبداع ومحفز من أجل إطلاق الطاقات الكامنة التي بداخل اللاجئين، لقد مثلت أمينة المرأة التي تهرب بذاتها من التقييد الاجتماعي والفكري للوصول إلى تحقيق أهدافها ملقية خلف ظهرها الماضي الكئيب، والذاكرة المقيدة.

سناء مثال اللاجئة المثقفة والروائية التي تعرضت للقمع والقهر من قبل الجماعات الإرهابية فقررت الهجرة من أجل الحرية الفكرية لتجد نفسها أسيرة المنفى الذي قيد ملكتها، وحدّ من أفكارها، اختارت الإقامة في بيروت إلا أنها شعرت بإعاقة فكرية، ثم تأزمت نفسيتها عندما رفضت بلجيكا الفيزا للإقامة سنة ككاتب زائر ، لقد عاشت سناء صدمة الأنا بسبب تهميشها والنظر إليها وكأنها مواطنة من الدرجات الدنيا "إذا كنت أنا الكاتبة التي لها كل هذه الصداقات تعيش هذا الوضع، ما حال أولئك الذين يعيشون في المخيمات وفي المنافي؟ "[19]، هذا يعكس معاناة المبدع السوري الذي يعاني الإجحاف في حقه، فهو مهمش وإبداعه مقيد يشعر بأنه خارج السرب يبحث عن بريق أمان يعوضه الإحساس في الغربة، لقد عكست سناء أزمة المبدع السوري بصورة عامة، والأديب على وجه الخصوص الذي يعاني القمع والاستبداد الفكري مما يفرز ليس أزمة مثقفين فحسب، وإنما أزمة ثقافة.

سوسن مثال اللاجئة التي لم تجد مجال عمل في تخصصها لم تستطع أن تفتح عيادة لأن أموالها تبخرت في الحرب فرضيت أن تعمل بأي عمل من أجل تأمين لقمة العيش " أخيراً رضيت بعمل مكتبي تجيده أي صبية غير حاصلة على البكالوريا حتى. من أجل دفع إيجار البيت، الغرفة...الحياة مكلفة ويمكن ضربها بأربعة أو خمسة أضعاف كلفة الحياة في سوريا." [20]

([19]) مترو حلب، ص68.

([20]) المرجع السابق، ص78.

هالا مثال اللاجئة النشيطة سياسياً، المشاركة في المظاهرات السلمية رغم أن المشاركة محفوفة بالمخاطر والخوف والتضحيات ومع ذلك كانت تشارك في المظاهرات، وتبحث عن الخونة، تبحث عن الحقائق لتصل إلى النتائج " هي هالا، التي تحبّ النهايات الواضحة، ولا تمرّ من قرب الحوادث، من دون تدخل." [21]

لقد شاركت المرأة الرجل وكانت صنوه منذ بدء الحراك السوري في المنفى، لقد أبرزت الكاتبة دور اللاجئة في الحراك الثوري، والنضال السلمي من خلال كتابة اللافتات، وإيواء المتظاهرين، وتعريض حياتها للخطر، مطالبة بالحرية والحقوق العامة، والعدالة للمجتمع السوري.

وبذلك تكون اللاجئة السورية واكبت قضية الوطن، حيث مثلت من خلال هذه الرواية محوراً مهماً من حيث المضمون الفكري، إن ربط صورة المرأة بالمناخ السوري الذي ظهرت فيه، يوضح لنا كيف تعكس الكاتبة موقف المرأة من المنفى ومعالجتها لهذه القضية بطريقة فنية تظهر من خلالها العلاقة الوثقى التي تربط الشكل بالمضمون، والمضمون بالفكر الذي تعبر عنه.

خيوط مشتركة بين الكاتبة والبطلة:

هناك تشابه مشترك ونقاط التقاء بين الكاتبة والبطلة من حيث الإقامة في حلب ومن ثم الهجرة إلى باريس، فقد الأم التي رفضت المنفى وآثرت الموت في بلد الحرب بدلاً من ترف المنفى ، لقد قتلت الكاتبة أم سارة في انعكاس مماثل لموت والدتها التي تخلصت من ذعر المنافي الذي سيكون عبئاً عليها إن عاشته، وكأن المرحلة الحالية من الصراع تشير إلى أن التمسك بالوطن يعني الموت، على أمل أن المستقبل سيكون بالرجوع إلى الوطن، والعيش فيه.

لقد اختارت الكاتبة مدينة حلب كبؤرة صراع نفسي، فدالة المكان لها صلة ورابط بالشخص الذي يقطنه، لأنها إسقاط للحالة النفسية أو الفكرة على المحيط الذي هو فيه مما يجعل المكان دالة تتجاوز الدور المألوف بوصفه حيزاً مادياً، فالمكان " امتداد لصاحبه فهو تعبير مجازي عن الشخصية."[22]، ومن هنا فإن دالة حلب في الرواية هي امتداد لشخصية الكاتبة وتجربتها الحقيقة التي عاشتها ومثلتها من خلال نصها الأدبي، وقد انعكس هذا الأمر على البطلة (سارة) التي كانت ترجمة لفكر الكاتبة وتمثيل لرؤيتها في علاقته مع المكان.

([21]) المرجع السابق، ص214.

([22]) نظرية الرواية، رينيه ويليك، ، ترجمة: حسام الخطيب، ط2، 1972، ص288.

لقد قدمت الكاتبة واقعاً مشحوناً بالألم النفسي جاء دليلاً على تجربة عاشتها، فقد مدت جسوراً بين ما تكتبه وما تعيشه، من خلال صور طبعت في ذاكرتها من مأساة ومعاناة رصدتها بتكنيك محكم، يقول مارك شورر:" إن الفرق بين المضمون، أو التجربة، والمضمون المحقق، أو الفن هو التكنيك"[23]، والتكنيك ليس محض اختيار، فالفنان يمر بأنواع من التجارب وذاكرته لا تستطيع الاحتفاظ بكل شيء" ولكنها تحتفظ بالصور التي تحفر عميقاً في نفس الإنسان، وهذه الصور تصبح بدورها مسؤولة عن اختياره للتكنيك الفني." [24]

إن الذاكرة عند الكاتبة تشير بوضوح إلى أن الصور التي حفرت عميقاً في نفسها هي الحرب وكوارثها، فالحرب المحور الأساسي الذي تتقاطع عنده الرواية، فما عاشته الكاتبة في حياتها الخاصة أصبح أمراً واقعياً ظهر جلياً من خلال بطلتها سارة التي أصبحت وحيدة في المنفى بعد أن اندلعت الحرب في وطنها، لقد كانت الخطوط بين الكاتبة والبطلة متشابكة من حيث الخوف من الحرب، والألم النفسي من قسوة المنفى، والحنين إلى الوطن، وقد تكون هذه الخيوط المتشابكة مجرد مصادفات درامية في هذا العمل الفني، فقد " يضع الكاتب مصادفات في عمله لا لخلق مناسبة لربط أجزاء الحبكة، بل لتأكيد رؤية معينة تتخلل أعماله." [25]، فقد عكست هذه المصادفات رؤية عميقة عبرت من خلالها الكاتبة عن مأساة شعب عاشت تفاصيله وهمومه فجعلت الحدث الدرامي أكثر واقعية ومصداقية.

موقف الدول الغربية من اللاجئ السوري:

أثارت أعداد اللاجئين السوريين الذين وصلوا الدول الأوروبية ردود فعل متباينة من حكومات الدول التي استضافتهم، فإذا ما احتضنت الدولة المستضيفة هؤلاء اللاجئين رفعت معنوياتهم، وإلا تعاظمت الجروح في نفوسهم، وقد رصدت الكاتبة هذا التباين من خلال الأحداث السردية التي حدثت مع شخصياتها، ومن أبرز هذه المواقف ما يلي:

1- ترحيب لافت يلقاه اللاجئ السوري، وتسهيلات سريعة في الدول الغربية، تعد هذه التسهيلات – في بعض الأحيان- خطة خبيثة غرضها سرقة الكفاءات والكوادر السورية وتسهيل التغيير الديموغرافي في

---

(23) "Technique as Discovery", in Myth and Method,Mark Schorer, ed, James E. Miler, Jr.(Lincoln: Univ.of Nebraska Press,1960), p: 88.

(24) الروائي والأرض، عبد المحسن طه بدر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1979، ص29. ويتفق الكثيرون مع رؤية بدر. انظر تلخيصاً لبعض الآراء في : فلسفة الفن: رؤية جديدة، علي عبد المعطي محمد، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص227-234.

(25) انظر: تأملات في عالم نجيب محفوظ، محمود أمين العالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970، ص3، 7، ومواضع أخرى.

البلاد وتجديد دماءها بالشباب السوري، كما حصل مع أمينة التي هاجرت إلى فرنسا فاحتضنها المسرح الفرنسي واستطاعت أن تصبح نجمة مشهورة ولإضافة الصبغة الأوروبية غيرت اسمها بما يتناسب مع نجوميتها فأصبح (أمينة دو داماس)، " أنا فرنسية. لأن هذه البلاد حققت لي أحلامي وطموحاتي كممثلة [26]..وهبني المسرح الفرنسي ذلك الثراء الفاخر. منحني ترف أن أكون عذة نساء في وقت واحد"[27].

2- فرض إجراءات صارمة تتمثل بالنبذ والرفض واعتبار اللاجئ السوري نكرة وعبئاً على الدولة، كما حصل مع سناء الكاتبة والروائية السورية المشهورة التي رفضت السفارة البلجيكية منحها الفيزا بعد أن وصلتها دعوة من جمعية القلم في بلجيكا للإقامة سنة ككاتب زائر، " رفض الفيزا، جعلني أحس بأننا صرنا نحن السوريين كائنات يُنظر إليها كخطر على هذا العالم، أو يتعامل معنا كما لو أننا كائنات متخلّفة، ليست بمستوى مواطنيها." [28]، " الآن مجرد أن أحدنا سوري هي تهمة ونبذ مسبق. ثقيلة هي صفة اللاجئ التي تدمغنا"[29]

3- الشفقة على حال اللاجئ السوري والتضامن معه، كما حصل مع دارلين الفرنسية التي تعرضت بلادها لعمليات إرهابية ومع ذلك كانت لديها القدرة للتمييز بين اللاجئ المستضعف واللاجئ الإرهابي، تقول مخاطبة سارة " أحس بألمك... هؤلاء الإرهابيون الذين يقتلون أهلك هناك، جاؤوا يقتلوننا هنا." [30]

اللجوء وإشكالية الهوية:

تشير الهوية إلى "المبدأ الدائم الذي يسمح للفرد بأن يبقى (هو هو)، وأن يستمر في كائنه، عبر وجوده السردي، على الرغم من التغييرات التي يسببها أو يعانيها"[31]، لقد تشكلت هوية الشخصيات في الرواية من خلال علاقتها بالمكان الذي أعطاها الإحساس بالذات، فمنها من وجدت هويتها في المنفى، ومنها من وجدت أن الهوية الحقيقية لا تكون إلا بالرجوع إلى الوطن، " ومن هنا كان ارتباط

([26]) مترو حلب، ص24.
([27]) المرجع السابق، ص25.
([28]) المرجع السابق، ص76.
([29]) المرجع السابق، ص65.
([30]) المرجع السابق، ص237.
([31]) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، والدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985، ص225.

البحث عن الهوية بالبحث عن المكان؛ فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها، بل تنبسط خارج هذه الحدود حيث المكان الذي يمكنها أن تتفاعل معه." [32]

ومع تنوع أدوار الشخصيات في الرواية إلا أن معظمها عكس هوية الانتماء للوطن مما يشير إلى انتماء النسبة الأعلى من السوريين إلى وطنهم، فمثلاً العمة نزهة عمة سارة اضطرت أن تهاجر سوريا بسبب الحرب انتظرت زوجها في عمان حتى يحصل على الإقامة في السويد، لقد مثلت من خلال عمرها المتقدم الماضي العريق والهوية السليمة، فكانت علاقتها بالمكان علاقة ملازمة ،" كنت أشعر بالأمان في حلب، رغم الحرب، هناك لديَّ بيتٌ يحتويني، حين كنت أدخل العمارة، ما إن أصعد الدرج حتى أشعر أن هذا المكان لي، هويتي، حتى درج البناية أنتمي له، أنتمي للشوارع للمحلات للباعة للفرن ... هنا أنا غريبة، لا أعرف الشوارع ولا الناس .. أحس بالخوف والقلق، وحين أتخيّل أنني سألتحق بزوجي في السويد أشعر بغصّة في القلب، كأني سأدخل قبرًا ضيقًا..." [33]، وفي المقابل هناك من تخلى عن هوية الوطن لتصبح هوية الأنا هي المنفى بكل تفاصيله " صار نصف الشعب السوري أوروبي. تخيلي شوفير السرفيس، أبو عبدو زوج فاطمة، صار معاه جواز سفر ألماني، وبيقول: عندنا في ألمانيا"[34].

إن قطبي التضاد " الوطن/ المنفى" قد تمثلتا بصورة جلية من خلال الشخصيتين الرئيسيتين (سارة / أمينة)، فدائماً يحركهما سؤال الهوية والانتماء، لقد تحركت الشخصيتان بينهما داخل نسيج روائي متشابك الخيوط كمركزين متعارضين في فضاء واحد في بنية مكانية معقدة إذ نجد في المكان الواحد انشطارات متضادة.

أمينة وجدت المنفى داخل الوطن الذي تناقضت معه من خلال القيم والاستقرار والانسجام والتناقض بينها وبين أهدافها، عانت أمينة من إشكالية في الهوية، فهي ترى بأنها فرنسية الهوية والكيان، " أنا فرنسية، أشعر بهذا بعمق، ويخيل إليّ أحياناً، أنّ ثمة من سرقني من فرنسا، وأخذني إلى سوريا، ثم استعدت حياتي الحقيقية حين غادرت." [35]، لقد وجدت في فرنسا بلد الثقافة التي تعطي كل ذي حق حقه، وتمنح الذات الحرية والجرأة لتجاوز التقاليد والعقد والحواجز النفسية، إن فرنسا بالنسبة إليها وسيلة الهروب من الذاكرة ومن الذات إلى هوية جديدة.

([32]) فن القص في النظرية والتطبيق، نبيلة إبراهيم، مكتبة غريب، ط1، د.ت، ص140

([33]) مترو حلب، ص123.

([34]) المرجع السابق، ص76.

([35]) مترو حلب، ص23.

أما سارة فقد احتفظت بهويتها واعتبرت المنفى ورطة مؤقتة، رغم أن أهلها في حلب يشجعونها على عدم العودة إلى الوطن فقد تحولت حلب إلى مدينة التلاشي والدمار، والمنفى بالنسبة إليهم المستقبل المشرق والحياة اليسيرة، لكن سارة رأت المنفى بطريقة مختلفة، "فرنسا هي المكان الطارئ، الموقت، الإسعافي، الذي جئت إليه، وأنتظر انتهاء الحرب لأغادره. فرنسا كلها الآن، بالنسبة لي، مجرد فندق أو مشفى أو جسر بين جبلين، محطة هنا أنتظر فيها القطار الذاهب إلى بلدي هناك... أنتظر استعادة حياتي. إعادة نسخة سارة إلى الأصل. أنتظر أن تنزلق قدمي في كل لحظة فرنسية، لتأخذني إلى حلب." [36]، فقد واجهت سارة هذا الاغتراب بكل طاقاتها وتغلبت عليه من خلال تأسيس مدن حالمة ومحاولة إحياء الماضي، إن الوعي الذي عاشته سارة لمرحلة الاغتراب أعطى الأشياء فلسفتها الحقيقية، ودفع العقل إلى التحرر والبحث عن الحلول من أجل تجاوز الواقع وتبديله، إن هذا الاغتراب سائر نحو البناء والتغيير، ونحو تجاوز الاغتراب نفسه إلى الانتماء الأصيل والحفاظ على الهوية المهددة.

إن علاقة الشخصيتان بالهوية علاقة يمكن تلخيصها بالانتماء والتنافر، الانتماء من خلال تداخل شخصية سارة مع المكان " الوطن"، وتنافر من خلال انسلاخ أمينة عن المكان " الوطن" فكرياً ونفسياً، لقد كان المنفى عند سارة خارج الوطن والمنفى عند أمينة داخل الوطن.

اللجوء والاضطرابات النفسية:

استطاع المنفى أن يخلق كثيراً من الاضطرابات النفسية التي صبغت حياة اللاجئ بهالة من التوتر الدائم، وجعلته يعيش في صراع دائم بين العودة والبقاء، فكان لهذا الصراع تبعات سكيولوجية، ومن هذه الاضطرابات مرض **السكيزوفرينيا**، فقد استطاع المنفى أن يؤثر بالبطلة سارة من خلال صدمة الأنا، حيث عاشت مرحلة انشطار ذاتي، وانفصام في الشخصية وتشظي الأنا إلى ذوات أخرى متقابلة ومتعارضة " أحس بأنني اثنتان، واحدة تحاول السيطرة على الثانية، أرى انشطاري أمامي. أعيش السكيزوفرينيا. أراني مقطوعة إلى سارتين: سارة التي تريد أن تصنع فناً تحلم به، وأخرى مقهورة تريد البكاء على أطلال العالم." [37].

أما الاضطراب النفسي الثاني الذي ذكرته الكاتبة فهو مرض **خلل المنافي**، "هذا ليس مرض الألزهايمر، فأنا لا أزال شابة على الألزهايمر. أُسمي مرضي: خلل المنافي." [38]، لقد وجدت سارة نفسها

([36]) المرجع السابق، ص15- 16.
([37]) المرجع السابق، ص216.
([38]) مترو حلب، ص9.

في المنفى المفاجئ لتعيش غربة الأنا، وأزمة الانتماء، وتبدأ بالاضطراب النفسي لأنها لا تعلم هل ستبقى في باريس أم ستعود إلى حلب؟ حالها حال آلاف المواطنين السوريين الذين يعيشون المنفى ولا يستطيعون العودة بسبب الحرب والعنف، فيعيشون حالة الصدمة وعدم اليقين من المكان، وكأنهم مرضى نفسيين.

ومن الاضطرابات النفسية أيضاً **فوبيا الحرب (ثنائية الحرب بين الاعتياد والرفض)**، فقد تغير مفهوم الحرب لدى اللاجئ السوري البعيد عن وطنه فأصبحت الأحداث المتعلقة بالحرب السورية مقتصرة على بعض المظاهرات السلمية أو مشاهدة الأحداث على التلفاز ومتابعة نشرات الأخبار، ليصبح مع مرور الوقت ابن معركة أخرى هي المنفى.

لكن هذا الاعتياد الروتيني في التعامل مع مظاهر الحرب كان له في بعض الأحيان بعض الاضطرابات النفسية، فقد كان اللاوعي ستديو تحميض لصور الحرب، فالصورة البصرية للحرب وما ينتج عنها من دمار وقتل انعكس في الأذهان، فأصبحت الشخصية تعاني الوساوس القهرية، وعدم الثقة والرهبة كما حصل مع سارة التي عانت من فوبيا الحرب عن طريق الخوف من الطائرات ورجال الأمن فعاشت حياة مضطربة متناقضة، فحتى عندما كانت في المنفى كانت تعيش حالة هذيان لا حالة أمان، ولم تستطع أن تفرق بين طائرات الأمن في فرنسا وطائرات الحرب في حلب" لا يمكنني أن أبعد عن رأسي صور الطائرات وهي تقصف المدنيين في حلب. صرت أشعر بالخوف من مرور الطائرات فوقي أو من مجرد سماع أصواتها.... يا إلهي الطائرات في بلدي تقتل الناس، وهنا في هذا المتحف أراها تنقذ الناس. "[39].

وقد انعكس الأمر نفسه على رجال الأمن الذين أصبحوا دالة على الخوف والذعر، "استغرق الأمر طويلاً، منذ وصولي إلى فرنسا، لأكف عن الشعور بالذعر حين أرى رجلاً أو امرأة من الشرطة. لم أتوصل حتى الآن إلى الربط بين الأمان الذي يحققه رجال ونساء البوليس هنا، وبين سلب الأمان الذي يتسبب به (البوليس) في بلدي." [40]

إن الاضطرابات النفسية التي خلفتها الحرب جعلت حياة سارة مليئة بالتناقضات نتيجة الصراعات النفسية، والهلوسات، والازدواجية والتشتت بين الأمن والخوف فعاشت صراعاً داخلياً،

([39]) المرجع السابق، ص9، 12.
([40]) المرجع السابق، ص12.

وسيطرت عليها مشاعر الرهبة وعدم الثقة مما يشير إلى أن خطر الحرب يتعدى حدود الدمار والقتل ويتجاوز الخطر السياسي والاقتصادي ليصل إلى الدمار النفسي الذي هو أشد وأبلغ.

ومن جانب آخر تطرقت الرواية إلى الاضطرابات النفسية التي تؤثر بها الحرب على الأطفال السوريين، إذ يعيش الأطفال السوريون الذين يعانون من فقدان حقوقهم الموت في كل لحظة جراء القصف والقذائف والاشتباكات، وقد انعكست هذه الأزمة السورية على الوضع النفسي والسلوكي للأطفال النازحين، لذلك جعلت الكاتبة للطفل السوري اللاجئ مساحة في روايتها فرغم قصر هذه الزاوية إلا أنها اخترقت نفس اللاجئ الطفل وما يدور بداخله من صراعات نفسية ومشاعر متناقضة، فلم تركز الكاتبة على الوصف الخارجي بل دخلت في مكنون الشخصية لرصد مخاوفها مما يدل على " قيمة الوصف وتأثيره الحيوي في الكشف عن التضاريس النفسية للشخصية؛ حيث لا يكتفي الواصف برصد الملامح الخارجية وإنما ينفذ إلى عالمها الداخلي؛ مستنبطاً مشاعرها النفسية وكاشفاً أسرارها ومتابعاً لها في نموها ومواجهتها للموقف ومشاركتها بفعالية في تطور الصراع الدرامي"[41]

لقد اختارت الكاتبة الطفل رامي الذي تعرض منذ عامه الأول إلى سقوط بيته في حلب وإصابة والده الذي قرر اللجوء إلى ألمانيا بحثاً عن الأمن والأمان، ولأجل هذه الأحداث أصبح الطفل رامي يعيش ظاهرة غامضة وهي حب النظر إلى مشاهد القتل وسماع أصوات القصف، " أراه يضحك بمتعة أمام فيلم يوتيوب أخاف أنا في هذا العمر من مشاهدته: جثث محروقة ودماء متيبسة على الجثث...أعتقد بأن رامي وجيله، لن يستطيعوا عيش حياة من دون حرب." [42].

لم يعبر رامي عن شعوره وحالته النفسية التي اختزلها عقله بطريقة مألوفة، فبدلاً من الصراخ أو الغضب، أو الانزواء عاش حالة من التأقلم مع مشاهد العنف، وحب الخوف، مما جعل عنده تشوه في المشاعر فصدمة الأنا عنده جاءت بالتعلق مع المتناقضات فكان ضحية الحرب وقد تهيأ للجوء وهو يحمل مرضه النفسي الذي جعل منه طفلاً مشوهاً نفسياً غير قادر على التأقلم مع الحياة بصورة طبيعية.

إن الحرب السورية رغم قساوتها أصبحت تفصيلاً جانبياً أمام أحداث المنفى وقصص اللاجئين التي تراوحت بين الغربة والحنين والرغبة في الانتقام والتضحية فقد بررت الشخصيات هذه المشاعر

([41]) الأسلوب القصصي عند يحي حقي، عبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب، القاهرة، 1990، ص72.

([42]) مترو حلب، ص72.

النفسية كل حسب موقعه من السياق الحكائي، لقد تركت الحرب بصمتها على مصائر الأبطال فما الحروب النفسية إلا نتاج موضوعي للحرب الحقيقية.

ومن الاضطرابات النفسية التي تطرقت إليها الرواية **التأرجح بين ثنائية الضياع والغربة**، إن التأرجح عند الكاتبة مثل الحياة بين ثنائيتين الصعود والهبوط، الوجود واللاوجود، الداخل والخارج، بين صورة الوطن الجميل وما فيه من أمن وطمأنينة، وبين ذعر المنفى وما فيه من خوف وتشرد، إن التأرجح الذي تعيشه الكاتبة وتخافه ما هو إلا مظهر من الاستعارة الكبرى لحالة السوريين الذين تتأرجح حياتهم بين الخوف وعدم الأمان .

إن التأرجح كان نتيجة الصدمة بواقع المنفى الذي طالما رسم له السوري صوراً مثالية، وحلم به كبديل عن الألم والمعاناة ، لكنه وجد حياة غير التي حلم بها فبدأ السير في رحلة طويلة للبحث عن الذات من خلال سؤال " من أنا وأين أنا وماذا أفعل هنا وما هو بلدي الحقيقي ومن هم أهلي؟ الكثير من الأسئلة العالقة، التي تضطرب في داخلي وتفقدني الوعي بنفسي وبالعالم..." [43]

لقد تواجهت شخصية أمينة المضادة لشخصية سارة في التعبير عن التأرجح، أمينة تعيش لذة التأرجح والانتقال من مكان إلى مكان، عاشت طفولتها تحب الأرجوحة وتنام عليها، تحب الارتفاع عن الأرض والصعود إلى أعلى، في رمزية إلى الانتقال من الوطن إلى المنفى واتخاذ المنفى بوابة للشهرة، أما سارة تكره التأرجح وتحب الاستقرار والثبات، تحب اليقين والاستقرار تكره المنفى وتحب الوطن، لقد رأت المنفى بأنه " الأرجحة بين الوجود واللاوجود.." [44]، ورغم الكره للتأرجح عاشته سارة رغماً عنها، لقد ساد شعور التأرجح عند سارة مغلف بخيوط حزينة لقد كان التأرجح بين القلق والشعور بالغربة، والرغبة في العودة إلى الوطن، لقد عاشت تفاصيل باريس بما يذكرها بحلب في حالة من التأرجح بين الحلم واليقظة، ظلت الذاكرة تستعيد الأمكنة وتعيد بناءها من جديد، فلم تستطع سارة أن تتخلى عن ذكرياتها في وطنها فكانت تتأرجح لتصل ولو في أحلامها إلى أيام عاشتها في حلب، مما يؤكد مقولة غاستون باشلار " الذكريات ساكنة وكلما كان ارتباطها بالمكان أكثر تأكيداً أصبحت أوضح." [45]، لقد كانت معالم حلب واضحة لدرجة أن سارة عكست مظاهر باريس وأسماء شوراعها على حلب، فكل مشهد في باريس له مثيل في حلب، حتى المترو الموجود في باريس رسمت له مخططاً مثيلاً وتفصيلياً

([43]) مترو حلب، ص199.

([44]) المرجع السابق، ص43.

([45]) جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط3، بيروت، 1987، ص39.

لكل مواقعه ومحطاته "كنت من غير وعي أخطط ما يشبه رسماً تخطيطياً لمترو حلب." [46]، لقد عكس هذا التأرجح المكاني الإحساس بقسوة المنفى، وتصدع الذات وافتقار الهوية.

لقد وصل التأرجح ذروته في الفصل الخامس من الرواية، إذ عانت سارة من الغربة والقلق المستمر الذي تأرجح بين الوعي وغياب الوعي، عبرت فيه الكاتبة عن حالات الخوف والرهبة والضياع، فتجلت أزمة التأرجح من الجانب النفسي حين تتوه سارة في عربة المترو، فما إن ينطلق حتى تجد نفسها في نهاية الخط والعكس وتتحول إلى فتاة متشردة في عربات المترو لتصعد وتهبط من دون أن تتذكر عنوان المحطة التي تقصدها للذهاب إلى بيتها في نوبة تشرد مجنونة مما يعكس الاغتراب الداخلي والفرار من الواقع عبر التشرد والتأرجح في دروب مجهولة حتى يتم نسيان الغربة والتلاشي، فالضياع الجسدي في المترو هو انعكاس لضياع داخلي.

لقد استعارت الكاتبة الأرجوحة لتعكس حالة التأرجح الذي تعيشه الشخصيتين المتضادتين (أمينة / سارة)، والأرجوحة شاهد على " التوتر الدرامي بين الهوائي والأرضي"[47]، وهو توتر يحول ثنائية العالي والمنخفض إلى رمز يستعمل في حب عدم الاستقرار والثبات كما حصل مع أمينة التي كانت تعشق الأرجوحة التي تشعرها بنشوة التحرك والانتقال من مكان إلى آخر، وهذا ما يتعارض مع سارة التي تكره الأرجوحة وتميل إلى الاستقرار.

إن ثنائية العالي والمنخفض ثنائية لم تظهر في الرواية بشكل مباشر على مستوى البنية السطحية، بل ظهرت بشكل ضمني على مستوى البنية العميقة لتشير في رمزيتها إلى اللاجئ السوري الذي يعيش حالة من التأرجح الإرادي واللاإرادي حسب ما يحمله من فكر، وما يؤمن به من مبدأ.

ولم يقتصر الأمر على هذه الاضطرابات النفسية، فمن خلال ترصد عبارات الرواية نجد أن الكاتبة استخدمت أكثر من مصطلح يوحي بالأزمة النفسية التي يتعرض لها اللاجئ السوري، مثل : إعاقة نفسية، الشلل النفسي، الارتجاج النفسي والغربة، التهتك النفسي... [48]، مما يعكس واقعاً نفسياً عانى منه اللاجئ السوري وجعله يعيش حالة ضياع، وتشتت واضطراب نفسي.

([46]) مترو حلب، ص82.

([47]) جماليات المكان، ص59.

([48]) انظر: مترو حلب، ص 30، 32، 213، 215.

بارقة أمل تلوح في الأفق:

لم تستطع الشخصيات اللاجئة في الرواية من العودة إلى الوطن بسبب التغيير الذي يطرأ على الأشخاص أنفسهم وعلى وطنهم، إذ تعتبر شخصيات الرواية نموذجاً لملايين من اللاجئين الذين تحولوا إلى غرباء بدون وطن وبدون جذور، وقد استثنت الكاتبة من هذا الوضع العام موقف سارة التي ختمت الرواية بقرار عودتها إلى الوطن، لقد اخترقت المتوقع لترسم رؤية مصيرية وأملاً لمستقبل واعد، لقد اخترقت سارة حدود المكان الواقعي لترسم فضاء متخيلاً شكلته حسب رؤيتها وأحلامها، إذ " لا يتشكل المكان إلا باختراق الأبطال له" [49].

حاولت الكاتبة أن تخرج الضحية من إطار الجلوس في كهف المظلومين واللطم والندب لاستعطاف القرّاء، فأخرجت الضحية من الهامش إلى المركز لتحول الألم إلى فكرة جمالية، لقد كانت سارة هي الضحية وهي في الوقت نفسه محرك السرد فقد منحت صوتها إلى من لا صوت لهم من اللاجئين المبعثرين في أنحاء العالم معبرة عن وجودها وكينونتها بعد أن تغلبت على مخاوفها وتحررت من قيودها، لقد رفضت البكاء والعويل وآمنت برجوع حلب مما يعطينا أملاً مشرقاً بأن حلب ستبقى، " نفضت رأسي بكبرياء وهمست لنفسي: لن أبكي، لن أبكي... ستعود حلب كما عادت باريس...باريس أيضاً كانت قد تحولت إلى أنقاض يوماً ما." [50]

ومع أن الكاتبة جعلت النهاية مفتوحة من خلال وضع يدها على الجرح دون أن تضمده، إلا إنها انتصرت للحياة في مواجهة الحرب والخيانات والموت، فاختيار الكاتبة الخاتمة من خلال عودة سارة للوطن تترك الأفق مفتوحاً لوعد غامض لمن سيواصلون الطريق، ولعل هذه العودة تجعل في الأفق أملاً لكل من يؤمن بأمل العودة، وحلماً في مواجهة الواقع المرّ الذي يصطدم الأحلام، ويقضي على الآمال.

الخاتمة:

في هذه الرواية نستقرئ أزمات الإنسان العربي عامة، والسوري بخاصة، ذلك أن البحث عن الذات شيء طبيعي في وطن مزقته الحروب ونهشته مخالب المتآمرين، وقد اتخذت الكاتبة من المنفى موضوعاً لبحث العلاقة التي تربط الجانب النفسي بالذات الإنسانية، من خلال استخدام الذاكرة والسرد الذاتي، فنجحت في تحويل موضوع المنفى ومأساة الحرب إلى فن ممزوج بالإرادة، ومبشر بميلاد غد جديد.

([49]) بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ص26.

([50]) مترو حلب، ص 35.

اعتمدت الكاتبة على تقنية سردية تعتمد على التداخل والتضارب، فتماهي الأمكنة الباريسية مع الحلبية خلط بين الماضي والحاضر، هي في الوقت ذاته تعكس حالة من عدم الثبات في دالة رمزية إلى حالة الوطن الذي يسكن النفس والوجدان رغم الغربة والاغتراب، لقد استطاعت الكاتبة أن تعكس صورة اللاجئ السوري في المنفى، من خلال علاقة اللاجئ بالمنفى وطريقة التكيف معه، وبناء على ذلك تباينت نسبة الاندماج مع المنفى حسب الانتماءات والايديولوجيات الفكرية.

بينت الكاتبة أن النسبة الأعلى من اللاجئين يعانون عدم التكيف مع المنفى؛ لأن ثمة تغيرات اجتماعية وفكرية اصطدم بها اللاجئ السوري، وبذلك تكون الرواية تعبيراً عن معاناة الحياة الإنسانية في المنفى مركزة على النواحي النفسية والفكرية، كما بينت الكاتبة معاناة اللاجئ السوري من خلال معاناته إشكالية الهوية، فمنهم من ذابت ذاته واضمحلت هويته؛ لأنه وجد في المنفى المجال الخصب للخيال والتجدد والانعتاق من الإيدولوجيات الضيقة، ومنهم من تحدى المنفى لإثبات الوجود، فالإنسان في النهاية هو صانع هويته، وقد تلخصت علاقة الإنسان بالهوية من خلال تيارين متضادين هما الانتماء والتنافر.

إن النص السردي كشف عن معاناة عاشها اللاجئ السوري، متمثلة بالاضطرابات النفسية التي أثرت على الصحة والأمن النفسيين نتيجة المعاناة، وصعوبة التكيف والتأقلم مع المنفى ومن هذه الأمراض: السكيزوفرينيا، خلل المنافي، فوبيا الحرب، ونتيجة ذلك كله تعددت المسارات لتلتقي في خط واضح هو التأرجح والضياع.

عكست الرواية الأوضاع السورية في المنفى، فهي صرخة في مواجهة الحرب وانقسام الهويات والضياع بين المنافي، وقد وضعت تصوراً لخلجات النفس السورية، وما طرأ عليها من اضطرابات نفسية في محاولة لإعادة صياغة الواقع، ومن خلال تلمس جزيئات السرد نجد أن غربة الأنا وصدمة المكان كانت ذات هيمنة شاملة على الذات وعلى المكان بكل أشكاله، إلا أن ذاكرة اللاجئ السوري كانت أقوى من هيمنة المنفى.

وأخيراً نلمس في هذا العمل خيوطاً مشتركة بين حياة البطلة والكاتبة، فهي توضح مدى التفاعل بين التجربة الذاتية عند الكاتبة والتجربة الجماعية عند السوريين، فقد تبيت الكاتبة مكامن الوجع الجمعي العميق مما يعكس وعياً عميقاً بمتن المشكلة وجوهرها، ويجعل الرواية انعكاساً واقعياً لحياة اللاجئ السوري.

قائمة المراجع العربية:

1. الأسلوب القصصي عند يحي حقي، عبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب، القاهرة، 1990.
2. بحوث في الرواية الجديدة، ميشال بوتور، ت فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، ط3، بيروت، 1986.
3. بنية الحكاية (في النص الروائي المغاربي الجديد)، عبد القادر بن سالم، دار الأمان، ط1، 2015.
4. بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1990.
5. تأملات في عالم نجيب محفوظ، محمود أمين العالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970.
6. جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط3، بيروت، 1987.
7. الروائي والأرض، عبد المحسن طه بدر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1979.
8. الرواية العربية، روجر ألن، ترجمة: حصة إبراهيم، الشمروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1997.
9. فلسفة الفن: رؤية جديدة، علي عبد المعطي محمد، دار النهضة العربية، بيروت، 1985.
10. فن القص في النظرية والتطبيق، نبيلة إبراهيم، مكتبة غريب، ط1، د.ت.
11. مترو حلب، مها حسن، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، القاهرة،، 2016.
12. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، والدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985.
13. نظرية الرواية، رينيه ويليك، ، ترجمة: حسام الخطيب، ط2، 1972.

المراجع الأجنبية:

1. The Short Story, Valerie Show, London: Longman,1983.
2. "Technique as Discovery", in Myth and Method,Mark Schorer, ed, James E. Miler, Jr.(Lincoln: Univ.of Nebraska Press,1960).